الخلاصة :

بعد هذا نلخص الدور الذي أدته روما في كل هذه الأحداث التاريخية حيث أنها أولا أرادت القضاء على منافستها الأولى في حوض البحر المتوسط وهي قرطاجة، فكان لها ذلك بتدميرها في سنة 146 ق.م، ثم تحالفت مع ماساناسا بعض الوقت وأخيرا انقلبت على أحفاده فقتلت يوغرطة في سجنه بروما، فقضت بذلك على بذرة الحضارة البونية والنوميدية التي لو قدر لها وازدهرت لانقلبت موازين القوى في العالم العربي ولسادت حضارة الشرق على حضارة الغرب هذا لوكان قدر لحنا بعل أن ينتصر على الرومان في معاركه في ايطاليا واسبانيا وشمال افريقيا.

حول شخصية عقبة بن نافع الفهري(*)

عبد الحميد حاجيات

لقد حظي عقبة بن نافع الفهري بشهرة كبرى، لم يحظ بها الا القليل من أبطال التاريخ الاسلامي فقد أولته الجماهير، منذ بداية العصر الاسلامي، احتراما وتقديرا لم توله الا لكبار الأولياء والصالحين، فسمته «عقبة المستجاب». كما عني به المؤرخون والقصاص، فأوردوا ما تناقله الرواة من الاخبار عنه، وحدثوا عن أعماله أكثر مما حدثوا عن أعمال غيره من قادة الفتح الاسلامي.

غير ان معظم ما وصلنا من تلك الأخبار يحمل طابعا قصصيا، يجعله في كثير من الأحيان أقرب الى الأسطورة منه الى التاريخ. ولا شك ان ما تتضمنه بعضها من المبالغة والغلو ينعكس على تصورنا لشخصية عقبة وللدور الذي قام به في حركة الفتح، ويؤدي أحيانا الى التناقض والغموض.

وحديثنا عن شخصية عقبة بن نافع لا يهدف الى تمجيد هذا القائد الشهير، وتعداد بطولاته ومفاخره. وانما غرضنا هو محاولة تسليط بعض الأضواء على أعماله، ووضعها في اطارها السياسي، واستنتاج أبعادها الحقيقية، مما قد يساعد على الحد من ذلك التناقض، وكشف بعض الغموض في تصورنا لشخصية عقبة.

ومن جهة أخرى، فمعالجتنا لهذا الموضوع تنحصر في استخلاص بعض جوانب شخصية عقبة من الاخبار التي أوردتها المصادر التاريخية، ومن أعماله وتصرفاته التي

ذكرها الرواة. وبما أن الموضوع يقتصر على تصور شخصية عقبة، فلم نستعرض دوره خلال حركة الفتح، ولم نستقص أخبار الحملات التي قادها في بلاد المغرب، ولا سيما حملته الشهيرة، التي انتهت بوفاته في معركة تهودا سنة 63 هـ.

والذي يلفت انتباهنا، عندما نطالع المصادر التاريخية، هو انها تقدم لنا صورتين متباينتين لعقبة. فبعض الأخبار تنوّه بقوة ايمانه، وبما ظهر على يده من كرامات، وتشيد بتفانيه في نشر الاسلام والقضاء على الكفر والشرك، بينما تشير أخرى الى فتكه بأهالي المغرب، واكثاره من التقتيل والسبي، ومعاملته القاسية لهم، وانقياده للحقد والانتقام، وجنوحه الى العنف والشدة.

فهل يمكن التوفيق بين هاتين الصورتين المختلفتين؟ أم هل نستطيع الوصول الى تصور آخر، على ضوء بعض المعطيات التاريخية والاجتماعية، التي قد تفسر الكثير من تصرفات قادة الفتح الاسلامي؟

لسنا نشك أن كثيرا من الرواة وضعوا الأخبار بقصد تمجيد عقبة ورفاقه، شهداء معركة تهودا، فنقل المؤرخون القدماء تلك الأخبار واعتبروها صحيحة. فيقول مثلا ابن عذارى: «ويروى أن النبي ﷺ أنذر بقتل عقبة (رضي الله عنه) وأصحابه (رضي الله عنهم)، وانه عليه الصلاة والسلام نهى عن سكنى مدينة تهودا، وقال: سوف يقتل عليها رجال من امتي مجاهدون في سبيل الله، ثوابهم كثواب أهل بدر، ما بدّلوا ولا غيّروا، يأتون يوم القيامة وسيوفهم على عواتقهم. وكان شهر بن حوشب يقول: واشوقاه اليهم. وكان يقول: سألت أكثر العلماء عن هذه العصابة، فقال: ذلك عقبة بن نافع وأصحابه قتله البربر والروم بمدينة تسمى تهودا، فمنها يحشرون حتى يقفوا بين يدي الله سبحانه.» [1].

ومن الكرامات التي نسبت الى عقبة ما حكاه ابن عبد الحكم، وهو أنه، عندما اراد بناء القيروان، «أتى وادي القيروان، فبات عليه هو وأصحابه حتى اذا أصبح وقف على رأس الوادي فقال: يا أهل الوادي، اظعنوا، فانا نازلون، قال ذلك ثلاث مرات. فجعلت الحيات تنساب والعقارب وغيرهما مما يعرف من الدواب، تخرج ذاهبة، وهم قيام ينظرون اليها من حيث أصبحوا حتى أوجعتهم الشمس، وحتى لم يروا منها شيئا، فنزلوا الوادي عند ذلك.» [2].

ومثل هذه الحكايات، ان دلت على شيء فانما تدل على ميل الناس الى الاخبار العجيبة، الخارجة عن العادي والمألوف، وحرص الرواة على ارضائهم، منتهجين في ذلك أسلوب القصاص، الذي يمتاز بالاعتماد على كل ما هو خارج عن العادة، كالتنبؤات والخوارق والكرامات. واذا كان بعض ما روي من ذلك يصور عقبة على هيئة الصلحاء المقربين، فان البعض الآخر يقص علينا تصرفات كلها تشدد وقساوة وعنف قد يتنافى أحيانا مع مبادئ الاسلام أو يكاد.

ومن هذا القبيل ما أورده ابن عبد الحكم في صدد الحديث عن فتح عقبة لبلاد برقة، سنة 46 هـ. وذلك أن عقبة «قدم ودّان فافتتحها. وأخذ ملكهم فجدع أذنه، فقال: لما فعلت هذا بي وقد عاهدتني؟ فقال عقبة: فعلت هذا بك أدبا لك. اذا مسست أذنك ذكرته، فلم تحارب العرب.» ونفس القساوة تتكرر مع ملك جرمة، قاعدة فزان، وكان أهلها قد أجابوا الدعوة للاسلام. فنزل عقبة منها على ستة أميال، «وخرج ملكهم يريد عقبة، وأرسل عقبة خيلا، فحالت بين ملكهم وبين موكبه، فامشوه راجلا حتى أتي عقبة وقد لغب، وكان ناعما، فجعل يبصق الدم، فقال له: لم فعلت هذا بي وقد أتيتك طائعا؟ فقال عقبة: أدبا لك، اذا ذكرته لم تحارب العرب.» ويتمادى نفس السلوك في قصور كوار، حيث أن عقبة أخذ ملكها «فقطع اصبعه، فقال: لم فعلت هذا بي؟ قال: أدبا لك، اذا أنت نظرت الى اصبعك لم تحارب العرب.» [3].

والظاهر ان هذا الخبر لم يوضع لغرض التاريخ وانما وضع لمجرد تسلية المستمع والترفيه عنه، واثارة تعجبه أو ضحكه. وينبغي اذن اعتباره قصة اخترعها القصاص، وادرجها الرواة في اخبارهم لملء فراغ المعطيات التاريخية الموثوق بصحتها. والتحفظ في معالجة المصادر القديمة أمر ضروري، اذا أردنا أن نصل الى تصور سليم ومقبول لشخصية عقبة وغيره من أبطال التاريخ. أما اذا أخذنا بمثل هذا الخبر، وتساهلنا في قبول أقوال الرواة، فان ذلك يؤدي بنا حتما الى التناقض بين استنتاجات مختلف الأخبار، وتنافر تصوراتنا لجوانب شخصية عقبة التي تعنيها.

ولذا، فاننا نرى ضرورة استبعاد كل ما هو من باب العجائب والخوارق، وكذلك كل ما يعتقد ان فيه غلوا ومبالغة، سواء في المدح أو في الذم. فلا يعقل أن

يؤخذ بما اعتاد المؤرخون أن يذكروه في حديثهم عن الفتوح من ابادة الأهالي واستئصالهم، والاكثار من السبي والغنائم. ولا جدال ان الفتح الاسلامي كان يرمي، قبل كل شيء، الى هدف أسمى، الا وهو نشر الاسلام بين الأهالي، وتطبيق مبادئه الداعية الى العدل والمساواة واحترام الأديان الأخرى. ولسنا نشك ان عقبة وغيره من قادة الفتح الاسلامي لم يحيدوا عن هذه المبادئ. والدليل على ذلك اقبال معظم الأهالي على اعتناق الاسلام، واندماجهم في مدة قصيرة، ضمن حظيرة الشعوب الاسلامية، ومساهمتهم الهامة في فتح الاندلس، وفي نشر الاسلام عبر كثير من مناطق المغرب.

أما موقف عقبة من أبي المهاجر دينار وكسيلة الأوربي، فقد اعتبره البعض مظهرا من مظاهر العنف والحقد والقساوة. غير أن الحكم على معاملة عقبة لأبي المهاجر، اثر عودته الى افريقية للمرة الثانية، يتطلب التعرض الى البيئة السياسية التي كانت سائدة آنذاك في العالم العربي، والتساؤل عما اذا كان الخلاف الذي قام بين أبي المهاجر وعقبة يندرج ضمن صراع أوسع بين قوتين من القوى السايسية المتواجدة آنذاك.

أما عقبة، فهو ينتسب الى قبيلة قريش، وكانت صلة قرابة تربط بينه وبين عمرو بن العاص، الذي كان من كبار مؤيدي معاوية بن أبي سفيان. وكان عقبة قد ساهم مع أبيه في حركة فتح مصر، وقد أرسله عمرو بن العاص الى زويلة، ففتح ناحيتها. ولما عاد عمرو الى ولاية مصر، سنة 41 هـ، أرسل عقبة الى غدامس، ففتحها سنة 42 هـ ـ 662 م. وتوفي عمرو سنة 43 هـ. ثم عهد معاوية بن أبي سفيان الى عقبة بقيادة جند افريقية سنة 46 هـ، فقدم الى ليبيا، وفتح ناحية قزان، ثم بلاد مزانة، ثم قفصة وبلاد الجريد، ثم شرع في بناء القيروان، الى أن تم عزله سنة 51 هـ من طرف والي مصر، مسلمة بن مخلد الانصاري، الذي عين مكانه أبا المهاجر دينارا مولاه. وكان معاوية قد ولّى مسلمة على مصر والمغرب.

وقد تساءل الكثير حول سبب عزل عقبة، فنهم من عزا عزله الى الشدة التي سار عليها في معاملة البربر[4]. ومنهم من رأى، على عكس ذلك، أن سياسة عقبة آنذاك لم تؤد الى الحصول على الكثير من السبي والغنائم، مما قد يكون أغضب والي

مصر[5]. ويبدو أن هناك تفسيرا آخر قد يساعد على تفهم سبب عزل عقبة.

فمسلمة بن مخلد كان من أصحاب معاوية بن أبي سفيان، وحضر معه معركة صفين. ولذا، فانه كان يحتل مكانة سامية من بين المقربين الى الخليفة الأموي. ثم انه كان من الانصار، ولا شك ان معاوية كان يحرص على كسب تأييد هؤلاء لحكمه ولولاية عهد ابنه يزيد. والجدير بالملاحظة ان الانصار كانوا يشكلون قوة سياسية يحسب لها حسابها، ولا سيما أن مشاكل الخلافة، بعد وفاة الرسول ﷺ، قد أدت الى منافسة شديدة بين الانصار والمهاجرين على الحكم، كل فريق يرى أنه أحق بالخلافة. وازدادت هذه المنافسة حدة بعد ذلك، بقدر ما اشتد الصراع بين اليمنية والمضرية، وكذلك بين العرب والموالي من الفرس وغيرهم. أضف الى ذلك أن مسلمة الانصاري كان قد حرم من ولاية مصر طيلة حياة عمرو بن العاص، وكان، خلال ذلك، شديد الحرص عليها. فكيف لا يقدم على عزل عقبة الفهري، الذي كان أحد أقرباء عمرو، وحظي لديه، ومارس على يده مهامه العسكرية الأولى؟

وقد ذكر ابن عبد الحكم أن مسلمة بن مخلد عيّن، مكان عقبة، «أبا المهاجر دينارا مولى الأنصار، وأوصاه حين ولاه أن يعزل عقبة أحسن العزل، فخالفه أبو المهاجر، فأساء عزله وسجنه، وأوقره حديدا حتى أتاه الكتاب من الخليفة بتخلية سبيله وأشخاصه اليه.»[6] والذي يتبادر الى الذهن، هو أن عقبة اعتبر تولية أحد الموالي مكانه مسا لكرامته وعزته، وقد يكون ابدى احتقاره لأبي المهاجر، الأمر الذي أدى الى غضب هذا الأخير، والى رد فعله العنيف.

ولسنا نشك أن عقبة بن نافع أنفعل انفعالا شديدا لعزله. وذلك انه كان مثل كثير من معاصريه، شديد الطموح، حريصا على البقاء في الامارة. ويروى ابن عبد الحكم أنه عاتب معاوية على ما حدث قائلا: «فتحت البلاد.. ودانت لي، ثم أرسلت عبد الانصاري، فأساء عزلي»[7]، معربا بذلك عن حنقه على أبي المهاجر. ويشهد على طموح عقبة هذا خبر رواه ابن عبد الحكم، مفاده أن عقبة دخل على عبد الله بن عمرو بن العاص، الذي عين واليا على مصر بعد وفاة أبيه، فقال له: «ما أقدمك يا عقبة؟ فاني أعلمك تحت الامارة.» فأجاب عقبة: «ان أمير المؤمنين يريد العقد لي على جيش الى افريقية»[8].

ولا غرابة أن ينتقم عقبة من أبي المهاجر لما أصابه من هوان ومذلّة، ويحتمل أن يكون تصميم عقبة على الانتقام لكرامته من أهم دوافع حرصه على العودة الى قيادة جيش افريقية.

أما ما قيل حول موقف عقبة من كسيلة فحديث مضطرب. وكسيلة شخص مبهم، اختلف المؤرخون في اسمه واسم أبيه، وفي ديانته، ومقر قبيلته. وقد سمي في رواية باسم ابن الكاهنة (٥). أما البلاذري، فلم يذكره اطلاقا (٥). ومن المحتمل جدا أن ما روي حول معاملة عقبة القاسية لكسيلة قد وضعه القصاص قصد ايجاد دافع للعملية التي دبرها كسيلة وحلفاؤه الروم للقضاء على عقبة ورفاقه. وعلى كل حال، فان هذه القصة لا تخلو من غموض، ولا يمكن الأخذ بها دون تمحيص ونقد وتحقيق.

* * *

وهكذا، فشخصية عقبة تعكس طابع العصر الذي عاش فيه، والبيئة الاجتماعية والسياسية التي كانت تحيط به.

فكان عقبة، مثل معظم الصحابة والتابعين، قوي الايمان، شديد الحرص على اعلاء كلمة الله ونشر دينه الحنيف، وتطبيق تعاليمه ومبادئه السمحة، لا تزعزع ارادته الشدائد والمشاق، ولا تثني عزمه الاخطار.

وكان عقبة شجاعا الى حد الاستماتة، يحمل نفسه ما لا تطيق، ويتجشم الصعاب برباطة جأش وعزيمة فولاذية. وعقبة هو، قبل كل شيء، فاتح صحراء ليبيا وجنوب افريقية، ومؤسس مدينة القيروان.

وكان، مثل غيره من أبناء قريش، فخورا بارومته، معتزا بشرف نسبه، وعزة عشيرته، طموحا، عالي الهمة، لا يتأخر عن طلب المجد، والتطلع الى المهام السامية، والمناصب العليا. وكان أبيا، لا يقبل اهانة، ولا يرضى بالمذلة.

فكانت أعماله نابعة من هذه القيم، وكانت تصرفاته صادرة عن هذه الخصال، التي جعلت منه قدوة للفرسان المجاهدين، الذين بذلوا نفوسهم خلال حركة الفتح الاسلامي، وبعدها.

وكان لاستشهاد عقبة أعمق الأثر في نفوس معاصريه والأجيال التالية، حيث أنه أعطى نفسا جديدا لحركة الفتح بافريقية، وسقى بدمه أرضها، فكانت منبتا خصبا للبطولة، وموطنا صالحا للاسلام والعروبة.

الهوامش :

(٥) هذا البحث ألقي في الملتقى الأول لحركة الفتوح الاسلامية بالمغرب الاسلامي، المنعقد بولاية بسكرة في الفترة ما بين 24 ـ 28 ابريل 1985.

(1) ابن عذارى، البيان المغرب، ج 1 ص 30.

(2) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص 265.

(3) نفس المصدر، ص 262 ـ 263.

(4) راجع عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، ج 2، ص 59.

(5) راجع موسى لقبال، المغرب الاسلامي، ص 41 ـ 42.

(6) راجع ابن عبد الحكم، المصدر المذكور، ص 265 ـ 266.

(7) نفسه، ص. 266.

(8) نفسه، ص 268.

(9) نفسه، ص 268.

(10) عبد المنعم ماجد، المرجع المذكور، ص 59 ـ 60.